: المنهج الوصفي:

هذا المنهج يقوم على أساس وصف اللغة أو اللهجة في مستوياتها المختلفة، من النواحي: الصوتية، والمقطعية، والصرفية، والدلالية، والتركيبية....ولابد أن يقتصر الباحث في نشاطه على الوصف المحض للظاهرة اللغوية التي يقوم بدراستها، أي تسجيل ما هو كائن بالفعل لا ما ينبغي أن يكون.

وقد بدأت بوادر هذا المنهج في نهاية القرن التاسع عشر ونمت في بداية القرن العشرين حتى تبلورت مفاهيمه على يد اللغوي السويسري فردينان دي سوسير، وأصبح المنهج الوصفي والدراسة الوصفية هي المهيمنة على مسار الدراسات اللغوية على مستوى العالم.

وسنتعرض لهذا المنهج بشيء من التفصيل هنا بعد الحديث عنه بإيجاز في تطور الدراسات اللغوية في القرن العشرين، وسنبين جهود العلماء العرب في إرساء قواعده بالرغم من عدم تدوينهم لها في كتاب.

واللغات واللهجات المدروسة في المنهج الوصفي إما أن تكون منطوقة مستخدمة كاللغات الحديثة وتسمى باللغات الحية، والبحث فيها يفرض على الباحث أن يبدأ من نقطة الصفر إذا أراد استكشاف الظواهر اللغوية فيهاليخضعها للدراسة، ويتّجه بها إلى التجريد والتقنين، وإما لغات ولهجات مكتوبة، وهي التي ذهب أصحابها في العصور الأولى، وبقيت لغتهم لغة مدونة مكتوبة، ودراستنا للغة العربية الفصحى القديمة تعتبر دراسة لغة مكتوبة، وليست منطوقة؛ لأن نُطق هؤلاء العرب الأوائل لم نسمعه، ولم نكن نحن المعاصرين له.

قواعد المنهج الوصفي وأصوله في تراثنا اللغوي:

المنهج الوصفي له أصول ذكرها اللغويون حديثاوقد عرفها العلماء العرب قديما ومارسوها عمليا من خلال دراساتهم الوصفية لتدوين اللغة العربية وتحديد أصواتها وصرفها وقواعدها ونحوها ومعجمها، كالتالي:

أ- اختيار عينة الدراسة من الكلام:

لابد أن تكون العينة الكلامية المدروسة التي يطبق عليها المنهج الوصفي ممثلةً للغة أو اللهجة تمثيلا حقيقيا.

ويشترط في اختيار هذه العينة أن يختارها من أناس أصِّحاء لغويا؛ أي ليس عندهم عيوب كلامية، وأصحاب أمراض عقلية، فلا يأخذ العينة من شخص ألثغ، أو شخص يثأئِئ، أو يفأفِئ، أو يتمتم... أو ذي حُبْسة كلامية؛ لأن هذه العينة ستكون مقياسًا بعد ذلك للغة أو اللهجة المدروسة، كما عليه أن يلتزم بأخذ اللغة أو اللهجة من أهل وسكان المنطقة الجغرافية المحددة التي يريد دراسة لهجتها أو لغتها، فلا يأخذ اللهجة من رجل خرج من هذا الموطن، واستقر في موطن آخر، ثم عاد بعد ذلك.

ويطلق علماء اللغة العرب مصطلح الراوي على من يُروى عنه اللغة، ويشترط في الراوي الذي يمثل لغة بيئته ويؤخذ عنه أن لا يخالط العجم مخالطة تفسد لسانه وتغير سليقته اللغوية، كأن يخرج من بيئته ويعيش في بيئة أخرى يتأثر بها، وربما يكون قد خرج عن العادات اللغوية المألوفة في بيئته الأصلية، وعلى الباحث أن يلاحظ في هذا الراوي تكلمه بالكلام التلقائي بعيدا عن التصنعوالحذلقة والظهور بالتفاصح في الأداء، فيتثبت من صدق الراوي،كما عليه أن يطمئن إلى حالته النفسية بحيث تكون طبيعية أثناء النطق.

ومن العجيب أن علماء اللغة العربية الأوائل طبقوا هذا المنهج الوصفي، عندما شرعوا في وصف العربية الفصحى فأخذوا اللغة من مشافهتهم للأعرابوتركوا الحضر، فخرج هؤلاء العلماء إلى البوادي، وتركوا ديارهم وأوطانهم، وعاشوا مع البدوواختلطوا بهم في أمورهم العادية واليومية لكي يدوّنوا اللغة، وقد تحرّوا الدقة في النقل والتسجيل والدراسة؛لأن هؤلاء البدو كانوا أهل فصاحة،وسلمت سليقتهم اللغوية ببعدهم عن الاختلاط بالعجم فلم يختلط بكلامهم شيء من كلام غير العرب، وانتقاء الراوي والمكان وسلامة الظروف المحيطة به من شروط العلماء فيمن يأخذون عنه العربية؛ لأن اختلاط البدو بغيرهم من الأمم ربما يفسد عليهم لغتهم الأصلية.

لذلك وجدنا العلماء لا يأخذون عن كل القبائل في تقعيد ووصف اللغة العربية، فاستبعدوا من دائرة الدراسة والرواية بعض القبائل التي كانت مجاورة للفرس والروم، والأقباط والأنباط، ويعتبر هذا ضربا من التحدي في التقصي على مصادر اللغة الأصلية، وأخذها من منابعها الأصلية.

ذكر السيوطي نصًا نقله عن الفارابي من كتابه "الألفاظ والأساليب" يقول في هذا النص: "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبيَنها إبانة عما في النفس، والذين نقلت عنهم اللغة العربية، وبهم اقتُدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم: قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكل في الغريب، والإعراب، والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، هذه هي القبائل التي أكثر العلماء بالأخذ بلغتهم، وأكثروا من لغتهم".

وبينوا سبب استبعاد القبائل الأخرى بقولهم: "لكنهم لم يأخذوا عن غيرهم من سائر قبائلهم، فلم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم؛ فلم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والأقباط، ولا من غسان، وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأهل الشام كان أكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس أيضًا، ولا من عبد القيس وأزد عمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف، وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين

عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا يتعلمون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم الأخرى، وفسدت ألسنتهم".

ومن ضبط العلماء العرب لمنهجهم أنهم كانوا يعتمدون على الكلام المنطوق المأخوذ عن الفصحاء مشافهة، كما حذروا من الاكتفاء بالكلام المكتوب؛ لأن المعالم الصوتية للأداء في الكلام ستكون مختفية، وربما صُحِّف أو حُرِّف الخط، وإذا كان فيه تصحيف أو تحريف خطيٌّ فهو لا يمثل اللغة المنطوقة.

إذًا وجدنا علماء العربية يتحرون كل الدقة والحذر في أخذهم العينات اللغوية التي يضعون عليها القواعد والأسس التي تُبنى عليها، ثم صار المُحْدَثون والمعاصرونفي دراستهم للغات الإنسانية دراسة وصفيةعلى هذه القواعد، فاعتمدوا على الكلام المنطوق، وأخذوا من الراوي الذي اكتملت فيه شروط الرواية الصحيحة المطلوبة.

ب_ تحديد المستوى اللغوي:

هل تُدرس اللهجة أو اللغة دراسة صوتية من حيث المخارج والصفات؟ أم تُدرس دراسة صرفية من حيث الصيغ والأبنية؟ أم تُدرس دراسة نحوية من حيث التراكيب؟ أم تُدرس دراسة دلالية من حيث بيان وتوضيح معاني الكلمات والتطور الدلالي الذي لحق بهذه الكلمات؟ لأن المستويات اللغوية تتفاوت في كل لغة فهناك المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي، وما يصدق على مستوًى لغوي معين لا يصدق على مستوى آخر، فما يصدق على المستوى الصوتي لا يصدق على المستوى الصرفي، أو النحوي، أو الدلالي، وعليه يجب تحديد المستوى اللغوي المدروس.

كذلك تختلف اللغة الشعرية عن لغة النثر؛ لأن اللغة الشعرية مرتبطة بوزن وقافية فيلجأ الشاعر إلى مخالفة القواعد اللغوية أحيانا ليحدثتجانسا وتآلفا حتى يكون الجرس الموسيقي لهذه الكلمات والجمل له تأثير في القوالب، وهذا بخلاف اللغة النثرية، لذلك وجدنا علماء العربية يعرفون هذا الفرق بين لغة الشعر وغيره من ألوان النثر والحديث العادي.

كما يجب على الباحث أن يحدد نوعية الطبقة الاجتماعية التي سيوصف لغتها أو لهجتها؛ لأن هناك طبقات اجتماعية ومهنية متعددة داخل المجتمع، فرغم أنهم ينتمون إلى مجتمع واحد، لكن الطبقات مختلفة، والمهن مختلفة، والعادات مختلفة، هذه المهن وهذه العادات لها مصطلحات خاصة تستعمل في طبقتها، ولا تستعمل في طبقة أخرى، وعلي الباحث أن يحدد المستوى الطبقي للمتكلمين، ومن خلال المستوى الطبقي يستطيع أن يحدد المستوى اللهجي الذي يقوم بدراسته.

ج _ تحديد البيئة المكانية:

تحديد البيئة المكانية للغة أو اللهجة المدروسة التي يراد وصفها وتحليل نماذجها ضروري في تطبيق المنهج الوصفي؛ لأن اللغة تختلف اختلافًا بيّنًا باختلاف الطبيعة الجغرافية

للإقليم الذي تعيش فيه، وتعبّر عن حاجات أهله، فسكان المناطق السهلية لهم لهجة، تختلف عن لهجة سكان الصحارى والجبال، ولسكان المناطق الساحلية لهجة تختلف في بعض مظاهرها عن لهجة أهل المناطق السهلية والجبلية؛ لأن المشاهد الطبيعية التي تعبر عنها اللغة مختلفة،والمدركات الحسية المُعبَّر عنها بالألفاظ اللغوية تتغير بلا شك بتغير البيئات واختلاف الأقاليم.

وعلماء العربية القدامى كانوا على وعي بهذه الحقيقة، فعرفوا أن اللغة العربيةانقادت واستوت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت في الجزيرة العربية؛ وتنبه العلماء إلى طبيعة المكان وما يتسم به، وربطوا بين المكان وبين اللغة، فنجد القاضي الجرجاني يربط في كتابه "الوساطة" بين اللغة وطبيعة البيئة الجغرافية للمكان من حيث اللين والنعومة، فالمكان الصحراوي جاف وعر تجد أصحابه أصحابَ خشونة، وأصحاب شدة وغلظة في الكلام وفي الأداء، لكن عندما تقارن بين لغةٍ أصحابُها يعيشون في مكان يتسم بالحضارة والتقدم والرقي، فتجد فيهم سهولة ولين ويسر في الأداءوالتعامل، ولذلك وجدنا الجرجاني يجعل لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق من أهم الأسباب التي تساعد على ركاكة وضعف اللغة، والوقوع في العجمة أيضًا؛فيحاول الإنسان دائمًا أن يبتعد عن الألفاظ الغليظة الخشنة الوعرة في النطق، ويستعمل اللين من الكلام، والسهل من الألفاظ.

د_ التحديد الزمني:

إذا أردنا دراسة لغة دراسة وصفية كالعربية فهل الحكم الذي نصدره على اللغة العربية في العصر الحديث مثلًا ينطبق على اللغة العربية في العصر الجاهلي، أو العصر الأموي، أو العباسي، أو غير ذلك؟

من قواعد المنهج الوصفي تحديد العصر الزمني الذي يقوم الباحث الوصفي بدراسة لغته، فيدرس اللغة في مرحلة واحدة من مراحلها؛ لأن كل عصر له لغته.

واللغة دائمًا في تغيّر مستمر بتغيّر العصور والأزمان، اللغة شأن الإنسان،الإنسان يتغير كذلك اللغة تتغير بتغير أصحابها، أو بتغير مجتمعها، كما تتغير لنهضة اجتماعية أو فكريةأو دينية؛ كل هذا يكون له تأثيره البالغ على اللغة، فهناك ألفاظ جاهلية سقطت من الاستعمال في العصر الإسلامي، وألفاظ أخرى ظهرت بمجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم لم تكن هذه الألفاظ مستعملة قبل ذلك في العصر الجاهلي.

يقول ابن فارس: كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم ونَسائِكِهم وقرابينهم، فلما جاء الله _سبحانه وتعالى_ بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وسقطت وأبطلت أمور، ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى، بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفى الآخر الأول، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق، ومن الأسماء التي كانت فزالت بزوال معانيها قولهم: المرباعة

والنشيطة، والفضول، وغير ذلك" هذه ألفاظ كانت مستعملة في العصر الجاهلي، لكن عندما جاء الإسلام محا هذه الألفاظ، وهكذا...

فمجيء الإسلام أحدث تغييرًا جذريًّا في المجتمع ككل، كما أحدث تغيرا كبيرا في الثروة اللفظية، فأحيا ألفاظًاومصطلحات ومفردات جديدة، وأمات ألفاظًا أخرى كانت تُستعمل قبل ذلك.

فالدارس يجد نفسه مضطرًا لأن يصف اللغة في زمن معيّن وليس على مر الأزمان والعصور، وعليه أن يحدد الزمن، ويحدد المرحلة؛ لأن اللغة في كل مرحلة لها أنماط، ولها مستويات، فلا يجمع الباحث الوصفي بين مرحلتين مختلفتين، بل يصف كل مرحلة على حدة؛ لأنه لو وصف مرحلتين مع بعض تداخلت الظواهر في المرحلتين، فلا نعرف هل هذا المظهر لهذه المرحلة أو مظهر الأخرى؟ فيحدث اختلاط ولبس.